شرفاء القصابي ملوية بين المخزن والتنظيمات المحلية ما بين القرنين 17م و20م

الدكتور عبد العزيز حفيضي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، فاس
المغرب

ملخص

يتمحور هذا الموضوع حول تقديم دراسة تشخيصية لأبرز العلاقات الاجتماعية التي شهدتها البوادي المغربية خلال الفترة المعاصرة، وذلك من خلال نموذج منطقة القصابي ملوية بالجنوب الشرقي للمغرب، هذا المجال الذي استوطنه فرع من الشرفاء العلويين الوافدين من مدغرة، خلال فترة حساسة من تاريخ المغرب، تميزت بإعلان الأسرة العلوية لطموحاتها السياسية، ما جعل أعضاءها يفكرون في الانتشار في مجالات استراتيجية، والعمل على ربط علاقات اجتماعية واقتصادية مع القبائل المجاورة، بغية بسط نفوذهم، مستغلين في ذلك نسبهم الشريف ونفوذهم الروحي، وكذا النزاعات القبلية آنذاك وقساوة الظروف الطبيعية التي كانت وراء اضطرار بعض القبائل إلى النزوح نحو الشمال.

Abstract

This topic revolves around presenting a diagnostic study of the most prominent social relations witnessed by the Moroccan nomads during the contemporary period, through the example of the Qasabi-Moulouia region in the south-east of Morocco. This area was settled by a branch of the noble Alawites coming from Medghara, during a sensitive period in the history Morocco, marked by the proclamation the Alawite family for its political ambitions, which made its members think about spreading in strategic areas, and working to establish social and economic relations with neighboring tribes, in order to extend their influence, taking advantage of their noble lineage and spiritual influence, as well as the tribal conflicts at that time and the harsh natural conditions that forced some tribes to migrate to the north.

الكلمات المفاتيح: ملوية العليا– القصابي ملوية– الشرفاء– القبائل

مقدمة

انتظم الشرفاء، منذ وصولهم إلى منطقة ملوية العليا خلال القرن 17م، في أشكال تعاقدية خاصة، حيث انخرطوا في علاقات جوار وتعاون مع القبائل المجاورة، فشكلوا تحالفات قبلية تهدف إلى إذابة الصراعات الداخلية المحتملة، أو الهجومات الخارجية غير المتوقعة، نتيجة الأزمات الطبيعية والاجتماعية؛ بفعل الجفاف والمجاعات والأوبئة، كما عملوا على نسج علاقات مع بعض الأسر الفاسية الكبرى المعروفة في الأوساط التجارية، وامتدت المخالطات التي أقاموها مع تجار فاس إلى إدخال تغييرات على الوضعية الاجتماعية سكان المنطقة، مع ضمان رواج اقتصادي دائم لها.

1- العلاقات التقليدية للشرفاء مع قبائل أيت ازدك

لقد كان للتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدها المجال المغربي خلال القرن 16م، دور كبير في وصول الشرفاء العلويين إلى مناطق مغربية مختلفة، مثل: السوس ومدغرة وملوية العليا، هذه التحولات التي نتج عنها بروز مجموعة من التحالفات القبلية على رأسها "اتحادية أيت يفلمان" التي كان لها تصور عام، يتمثل في التماسك وجمع الشتات رغم الاختلافات الاثنية، وهو ما استغلته بعض فروع الأسرة العلوية بحكم مكانتها الروحية والاجتماعية، خصوصا بعد وفاة المنصور الذهبي، حيث بدأ الصراع حول مناطق النفوذ، وذلك بالسيطرة على المناطق الاستراتيجية على طول المسالك التجارية والموارد المائية، وقد ساهم في انتشارهم هذا الخلافات التي عرفتها منطقة تافيلالت بين الأشراف أنفسهم، والتي وصفت بالفتنة، حسب ما أورده أحمد عبد اللوي في كتابه حيث قال: «وصاروا ينتقلون منها؛ أي تافيلالت، لمدغرة بسبب فتنة وقعت بينهم»[1]، ومن هذه الأخيرة إلى المناطق الأخرى كالقصابي ملوية بداية القرن 17م.

تبين معظم الوثائق المحلية، رغم قلتها، كون قبيلة شرفاء القصابي ملوية شأنها شان باقي القبائل المغربية تحكمها مجموعة من العوامل المتداخلة، فهم متعاونون ومتضامنون بالدرجة الأولى مع القبائل المجاورة انطلاقا من واجب الدفاع المشترك عن المجال المشترك، واستنادا إلى ما تمليه الأعراف وتعاليم الشرع الإسلامي، لكنهم في بعض الأحيان، كانوا يدخلون في صراعات مع جيرانهم بفعل الأزمات الطبيعية الدورية المتمثلة في الجفاف، أو بسبب النزاع على الموارد الاقتصادية، وكانت هذه الأشكال المتعددة من العلاقات بين القبائل هي السائدة داخل المجال القصباوي أو خارجه، وظلت تهيمن على المشهد القبلي عموما.

في ظل هذا الواقع، كان الأشراف يتميزون بمكانة اجتماعية مرموقة بحكم نسبهم الشريف ونفوذهم الروحي، وهو ما أهلهم لاحتلال مواقع مهمة في المجال القصباوي بالخصوص، بعدما رحلت عنه قبائل بني احسن نحو الشمال. بالمقابل، استغلت قبائل أيت ازدك قوتها وتمرس أفرادها على الحروب والقتال لبسط هيمنتها على بلاد أوطاط[2]. ولعل هذين العاملين؛ المكانة الدينية والقوة الدفاعية؛ ساهما بشكل كبير في التحكم في مجال شاسع، يمتد على جزء مهم من حوض ملوية العليا من طرف الشرفاء وأيت ازدك، وجعلا من إمكانية الاستيطان فيه من طرف بعض القبائل الوافدة أمرا محفوفا بالمخاطر.

فمنذ رحيل قبائل بني احسن عن موطنهم الأصلي بمنطقة حوض ملوية العليا في اتجاه الشمال، بفعل توالي الجفاف وقساوة المناخ، احتل الأشراف وقبائل أيت ازدك هذا المجال، مدركين تمام الإدراك أن مصلحتهما تقتضي التعاون والانخراط ضمن أحلاف قبلية من أجل السيطرة عليه، وتوطيد نفوذهما به. وبغض النظر عن الخلاف القائم بين الطرفين، نتيجة توجهات كل منهما السياسية؛ إذ كان الأشراف يدينون بالولاء التام للمخزن المركزي، ويستظلون بسلطته؛ بينما كانت قبائل أيت ازدك كثيرة التمرد على هذه السلطة في معظم الأحيان، فعلى الرغم من ذلك، اتخذت العلاقة بين الأشراف وأيت ازدك مظهرا إيجابيا، وساعد موقع الأشراف كوسطاء بين القبائل المتمردة والسلطة المركزية، في إحلال الأمن بالمنطقة، وتجنيبها غضب ولعنة المخزن في كثير من الأوقات.

ومما يؤكد علاقات الود وحسن الجوار بين الأشراف وقبائل أيت ازدك، وثيقة مهمة أوردها **شارل بيلات** Charles Pellat في إحدى تقاريره سنة 1973م، تضمنت اتفاقا تاريخيا بين الطرفين منذ سنة 1112هـ/ 1700م، ينص على حماية قبائل أيت ازدك للشرفاء، وقد تم تجديد هذا الاتفاق سنة 1168هـ/ 1755م. وبحسب التقرير نفسه، يشمل الاتفاق الشرفاء البالغ عددهم 5069 نسمة، والذين توزعوا على مناطق مختلفة انطلاقا من وادي إيفلي بمدغرة[3]، وقبائل أيت ازدك التي قدر عدد أفرادها ب 33180 نسمة سنة 1930م، والمنتشرة في كل من مناطق ميدلت والريش وتالسينت وبوذنيب وقصر السوق، وبعض العناصر في ميسور، وأخرى في قصر أيت بلال، االتابع ترابيا لنمطقة القصابي ملوية[4]. وتبعا لذلك، تتعهد جماعة أيت ازدك بالدفاع عن الشرفاء وأحفادهم، ويبقى هذا الاتفاق مستمرا وصالحا في كل المناطق التي تشملها سلطة المخزن، بما فيها القصور التي سوف تشيد مستقبلا، وكذلك المحاور التي يسلكها الشرفاء، وإلى الحدود التي يصل إليها عبيدهم، كما يعفى الشرفاء من دفع الزطاطة في كل المحاور التي تشغلها قبائل أيت ازدك، وأبرزها مناطق مسكي وتيزي ـ ن ـتالغمت والنزالة، والتي تعتبر من أخطر المسالك التجارية، مقابل تعهد الشرفاء بتوفير السلع، وكثرة الأولاد، «لكونهم ينتسبون للرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وهو ما يمثل مصدرا للرخاء والسعادة للأمازيغ، وتكثر البركة وأمطار الخير، ومن حاول كسر هذا الاتفاق فهو ملعون من الله والملائكة وأفراد القبيلة، ولا يسمح له الزواج بفتاة من القبيلتين، أو حضور أي تجمع، فيصبح مثل ما يكون عليه الخشب الجاف في نار جهنم، كما قد يصل العقاب عائلته وأحفاده »[5]. وقد حضر هذا الاتفاق ثلاثة عشر شيخا كممثلين لقبائل أيت ازدك وستة أعضاء من الشرفاء.

ولعل هذه الوثيقة توضح طبيعة العلاقة بين القبيلتين، والتي أهلت الشرفاء للقيام بدور الوساطة، كلما توترت العلاقة بين أيت ازدك والمخزن، نظرا لما لها من القرابة مع هذا الأخير، كما أهلتها لضمان الأمن والاستقرار في المجال الشاسع المحيط بها. ولنا في مجموعة من الوثائق بعض مظاهر هذه العلاقة في فترات تاريخية متباينة، فقد حدث أن تقدمت قبيلة أيت ازدك بطلب ود السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، بعدما كانت خارجة عن طاعته، عبر وساطة شرفاء القصابي، الذين لم يترددوا في إبلاغه بذلك، عبر رسالة جاء جوابها بكتاب سلطاني إلى الشريف مولاي الحسن بن علي نصه كالأتي:

«**فقد وصلنا كتابك، وعرفنا مضمنهما، وعلمنا ورود أعيان خدامنا أيت ازدك عليك، طالبين منك مطالعتنا بما أجمعوا عليه، والتزموه من الصلاح والجد في الخدمة وحفظ الطريق، والقيام بواجب السمع والطاعة في جميع ما يومرون به، وأن يرجع كل واحد لأصله، ويقف عند حده، وما تعاقدوا عليه من ذلك، وتعاهدوا عليه بالحملاء والمزارك، فذلك الظن بهم، والمراد منهم، فإنهم خدامنا وخدام أسلافنا، ولهم القدم الراسخ في الخدمة والصلاح، أصلحهم الله ورضي عنهم...** »[6].

وفي المقابل، ساهمت قبائل أيت ازدك بشكل فعال إلى جانب الشرفاء في إقرار الأمن والسلم في المنطقة، وعيا منها بضرورة الحفاظ على أسس التوازن القبلي المحلي، الهادف إلى استقلاليتها، واستمرار وجودها واستقرارها، فكانت تقف على تسوية بعض الخلافات التي تنشب بين عناصر القبيلتين أحيانا، خصوصا خلال الفترات العصيبة. فلا غرابة في ظل هذه الوضعية، أن يتدخل أعيان القبائل لإطفاء حالة التوتر هذه، وأحيانا تشهد تدخل المخزن المحلي في شخص بعض القواد، وهو ما قام به القائد علي الزدكي سنة 1861م خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عيد الرحمن، حيث عمل على فض النزاع القائم بين أبناء عشيرته وأفراد من الشرفاء، فتم إنصاف الشرفاء جراء الظلم الذي لحق بهم[7].

ويبرز الدور الهام الذي كان يقوم به الأشراف في تليين موقف قبائل أيت ازدك المتعصبة من جهة، وردود فعل المخزن العنيفة من جهة أخرى، من خلال قيام زعامات أيت ازدك بنفسها بصيانة قصبة المخزن بالقصابي، بمجرد إعلان السلطان مولاي الحسن عن رغبته بصيانتها سنة 1893م. وتشير إحدى الرسائل السلطانية لمولاي الحسن، إلى مدى الترحيب الذي لاقته قبائل أيت ازدك من طرف الشرفاء وممثلي المخزن، غداة انضمامها الطوعي لصيانة القصبة المخزنية[8]. كما أن هناك عدة وثائق تؤرخ لنفس الفترة، تجسد

هذا التآزر والتضامن بين القبيلتين، وبعضها حمل خواتم قواد عدد من القبائل، بما فيهم قواد أيت ازدك، تؤكد على ضرورة الاهتمام بالقصبة المخزنية، باعتبارها أهم مؤسسة مخزنية في المنطقة[9].

2- شرفاء القصابي وأهل فاس

ظلت مدينة فاس على مر العصور، بحكم موقعها الجغرافي ومكانتها السياسية والاقتصادية، تشكل منطقة جذب للسكان من مختلف المناطق المغربية، فتوافد عليها القريب والبعيد. وهكذا، نجد أن « ساكنة ضواحي فاس تخصصوا في أشغال البساتين، وتحضير زيت الزيتون، وأهل سوس في بيع السمن والعسل والزيت والصابون الأسود بالتقسيط، وأهل درعة زاولوا حرفتي البنائين والسقائين»[10]. كما أن سكان تافيلالت، منهم من قصدها للدراسة بجامع القرويين، ومنهم من أراد التجارة بها، ومنهم من أرغمته ظروف العيش على مزاولة مهن بسيطة؛ كحمل البضائع على ظهور البغال، أو امتهان حرف تقليدية كانت سائدة بالمدينة[11]، وحتى تلك القبائل التي فضلت الاستقرار بمناطق مجاورة كصفرو وتازة، كان لزاما عليها التنقل صوب مدينة فاس، إما لبيع منتجاتها، أو لنقل الموارد الطبيعية كالفحم والغاسول[12]. والملاحظ في إطار هذه الحركية الدؤوبة نحو العاصمة فاس، أن شرفاء القصابي تمكنوا من نسج علاقات اقتصادية وعائلية مع أهل فاس، واعتاد أعيانهم على زيارة المدينة، تارة لجلب المنتوجات الخاصة بهم، وتارة أخرى لقضاء أغراض شخصية، فكان ذلك يتم بتنقل بعض أبنائهم أو إيفاد من ينوب عنهم من الخدم، وهو ما جعل الأشراف يربطون علاقات صداقة مع العائلات الفاسية، وساعدهم في ذلك نسبهم الشريف الذي يمثل القاسم المشترك بينهم وبين أهل فاس. وقد جاء في رسالة لأحد الأبناء لأهله في القصابي وهو يتساءل عن سبب تأخر جوابهم: « **وقد طال مقامنا في هذه الحضرة الإدريسية... وكنا قبل وجهنا لكم مكاتب اثنين، ولم يظهر منكم جواب، جعل الله المانع خيرا... وترينا جلسنا حتى عيينا، وحين رأينا أنفسنا نأكل من الدراهم، ذهبنا لدار المخزن، وجعلنا نقبض المونة ثمانية خيل مونة، وأنزلونا في دار بالطالعة بفاس** »[13]، وهو ما يوضح العلاقات المتميزة بين الطرفين، وبذلك تكشف الوثيقة عن اعتياد أهل القصابي المقام بمدينة فاس في ضيافة المخزن وكرمه، وإن لم تفصح عن سبب الزيارة. إلا أن وثائق أخرى تبرز بوضوح، أن الغرض من ذلك يكون بهدف التشاور في بعض القضايا الداخلية وإيجاد حلول لها، كما ورد في الوثيقة التالية: « **إلى ابن عمنا الشريف الأجل مولاي أحمد السيد، سلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا نصره الله، وبعد، ... وقد حُزنا المال من سيدنا الشيخ رضي الله عنه، وتفاهمنا مع سيدي اسليمان الصقلي، وخرج الأمر بسلام والحمد لله، وأما قضية سيدي التهامي فقد تفاصلنا فيها بمائتين وعشرون ريال... وأما ولد الذمي وجدناه قدم عند سيدي اسلمان بكتاب مولاي أحمد بن الحسن يخبر بقدومنا وبما يفعل معنا، وتلاقى (كذا) مولاي هاشم مع سيدي اسلمان وخرج الأمر بسلام**»[14].

تبرز الوثيقة أن بعض الخلافات بين شرفاء القصابي لا يمكن حلها إلا في فاس، إما بحضور بعض شرفاء فاس الذين يحضون بالاحترام من قبل شرفاء القصابي، أو الاحتكام إلى بعض الشيوخ والصلحاء الذي يتوسطون بينهم، كان الأمر يتطلب أحيانا دفع غرامة مالية من أجل الوصول إلى حل مرض، كما يستشف من قوله: «وأما قضية سيدي التهامي فقد تفاصلنا فيها بمائتين وعشرين ريال»، كما توضح الوثيقة خلافا ما بين الشرفاء ويهودي، والراجح أن الأمر يتعلق بعلاقات تجارية تمت تصفيتها في فاس بوساطة أهله.

أما بخصوص انتقال الشرفاء إلى فاس قصد جلب المنتوجات الفاسية الخاصة بهم، فقد كان يتم غالبا في إطار التجهيز لبعض المناسبات العائلية (عقيقة، زواج...)، والتي يطلق عليها محليا "السَّبَّة"، حيث الحاجة إلى بعض المنتوجات غير المتوفرة في سوق القصابي، خصوصا وأن الشرفاء المذكورين: « أهل ثروة ومجادة وجاه وتعظيم وسيادة»[15]. فبالإضافة إلى بعض المواد الغذائية، كان

شرفاء القصابي يتبضعون منتوجات فاسية خالصة وبمواصفات معينة، فكانت أغلب احتياجات الشرفاء ترتبط بالصناعة التقليدية، مثل: القشابة والشربيل والسروج[16]، وفي الغالب يتم تكليف من يقوم بهذه المهمة من تجار فاس، لأنهم على دراية بمصنوعاتهم وبجودتها، مقابل ذلك، كان أهل فاس يطلبون منتوجات البادية كالسمن[17]. وفي هذا الإطار، كان الطرفان يتبادلان مراسلات تتضمن نوع المنتجات التقليدية التي يحتاجها أهل القصابي ومواصفاتها، كما تفيد بذلك رسالة التاجر الفاسي محمد الودغيري إلى إحدى الأسر الشريفة بالقصابي عبر أحد المبعوثين: «**ترانا (كذا) اشترينا الحوائج المذكورين في كتابك، أما الكساوي فتراهم اشتريناهم من القسارية مخيطين (كذا)، لكن ذلك لضيق الزمان، والآن اذا أردتم أن نشتري لكم شيئا فاليكن (كذا) الزمان متسع**»[18].

ويبدو أن التنقل نحو مدينة فاس، ظل مستمرا وبحركة دؤوبة، على الرغم من بعد المسافة ومخاطر الطريق، ويبدو أن أهل القصابي كانوا ينتقلون إلى فاس بغرض التبضع في مناسبات معينة، وأحيانا يستغلون تواجدهم بالمدينة من أجل اقتناء بعض المنتوجات. وقد شكل الرقاصة أهم حلقة في عمليات البيع والشراء بين الشرفاء وأهل فاس، إذ تفيد بعض الوثائق التي بين أيدينا كيف يرد البائع صاحب الطلب من فاس إلى القصابي، لمجرد أن الطلبية غير واضحة من حيث القياس أو اللون أو المادة التي تصنع بها، وهو ما توضحه إحداها الوثيقة بجلاء حيث جاء فيها: «**فقد وصل الأعز بالله كتابكم، وقرأناه واستفدنا ما فيه، وعن عافيتكم هي عندنا غاية المراد، وكلما ذكرتم فيه صار ببال... القشابة، هل من الكتان أو الصوف؟ وأيضا الشربيل هل مطروز بالصقلي؟**»[19].

وبهذا تكون المراسلات بين الشرفاء وتجار فاس أهم وسيلة للاتصال بين الطرفين في أغلب العمليات التجارية، وفي الوقت نفسه مصدرا مهما يمكننا من الكشف عن مجموعة من المعلومات الهامة حول نوع العلاقة التي كانت تربط الأسر الشريفة بأهل فاس، فضلا عن المكانة الاجتماعية التي كانت تتميز بها الأسر، والوضع المريح الذي كانت تنعم به.

فمن جهة أولى، كشفت هذه المراسلات عن أوجه الأداء المعتمدة بين الطرفين، مقابل الاستفادة من البضائع المراد اقتناءها، والتي كانت تتم في الغالب بشكل مباشر وفوري أثناء تسلم البضاعة، وقد يكون الدفع مؤجلا بحسب طبيعة العلاقة التي تجمع بين صاحب المحل والمشتري، والتي كانت في الغالب علاقة صداقة متينة أو مصاهرة، حسب ما ورد في الوثيقة التالية على سبيل المثال: « **ومنا يسلم عليكم جميع الأهل والأحباب، خصوصا أهل دارنا للا زينب وولدها الشريف سيدي إدريس وإخوته للا مينة وللا فطوم، والجيران، ولا تنسونا من دعاء الخير، وأما سؤالك عن ما زاد وما نقص، فالأمر لله كيف شاء فعل والسلام.**»[20].

من جانب آخر، تضمنت هذه المراسلات قوائم مفصلة للمشتريات التي اعتاد الشرفاء اقتناءها من فاس، وهي عبارة عن مواد غذائية كالسكر والشاي والتوابل، وملابس كالقفطان والشربيل والبلغة، إضافة إلى لوازم الدواب، وخاصة الخيول منها كالسرج، فضلا عن تضمينها لتفاصيل أخرى تتعلق بسعر الوحدة من كل منتوج والسعر الإجمالي، إضافة إلى ثمن المأوى عندما يتعلق الأمر بالمقام لفترة طويلة لأحد الشرفاء أو أبنائهم، إضافة إلى ذلك، فقد تضمنت بعض وثائق المحاسبة كذلك ديون تقدم لبعض الأفراد من شرفاء القصابي، وخاصة عندما يطول بهم المقام في هذه المدينة[21].

من خلال ما سبق، يتضح أن المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين شرفاء القصابي وتجار فاس، ساهمت نوعا ما في تقوية الصلات بين الجانبين، وقد تطور الأمر إلى نسج علاقات مصاهرة شكلت مصدر حظوة اجتماعية لأصحابها، ولعل إقدام العديد من شرفاء القصابي على الزواج من أسر فاسية ذات نسب وحظوة، وأبرزهم الشريفين القائد مولاي أحمد السيد والباشا مولاي أحمد بن علي، يعتبر نموذجا حيا للمزاوجة بين السلطة والنسب للارتقاء الاجتماعي. غير أن كل من القائد الحاج البركة وابنه سيدي محمد

بن علي لم يلتزما بهذا التقليد، حيث تزوجا أختين من جهة الأم، وهما شريفتين قصباويتين؛ بنت الباشا مولاي أحمد بن علي وبنت السيد القائد السابق للقصابي[22].

3- الشرفاء والمخزن

بدأت تظهر ملامح الرؤية المستقبلية والمشروع السياسي للأشراف منذ وصولهم إلى منطقة القصابي ملوية، حيث عملوا على تقسيم المجال فيما بينهم، إذ ذكر صاحب « **الدرر البهية**» أن الشريف مولاي السعيد بن عبد الرحمان وزع على أبنائه أراضي شاسعة، ومنذئذ شكل هؤلاء قمة الهرم الاجتماعي في المنطقة، وذلك بامتلاكهم للأراضي، فاستولى مولاي الحسن بن السعيد وأبناؤه على قصر بوسلام، ومولاي هاشم وأبناؤه على أجزاء من بوعياش وأخرى في القصابي، وسيدي محمد بن السعيد وأبناؤه على قصر تاوريرت وأجزاء من القصابي، ومولاي عبد القادر وأبناؤه على القصر الجديد وأولاد ارزين، ومولاي عبد الرحمان ابن السعيد وأبناؤه على أجزاء من القصابي، ومولاي الفضيل بن محمد فتحا بن السعيد وأبناؤه على قصر السمغوني[23].

وإلى جانب امتلاك هاته الفئة لوسائل الانتاج، فقد تبوأت المكانة المتميزة بفضل نسبها الشريف الذي جعلها تحظى باحترام وتقدير وخضوع من قبل فئات اجتماعية أخرى، رافقتهم في تنقلاتهم إلى مناطق عديدة، وخصوصا خلال القرن 16م، ويتعلق الأمر بالحراطين الذين كانوا يشتغلون في مزارعهم، والعبيد الذين كانوا يقومون بخدمتهم داخل البيوت.

وإذا علمنا أن بعض القبائل قد استوطنت هي الأخرى بالمجال القصباوي، إما عن طريق شرائها لجزء من الأراضي من الشرفاء، وهي القبائل الأمازيغية، أو من خلال وصول بعضها إلى المنطقة، متنقلة بحثا عن الكلأ لماشيتها، وهي قبائل أولاد خاوة، سنكون أمام هرم اجتماعي مكتمل، مشكل بالأساس من قاعدة يشغلها الحراطين والعبيد، ثم القبائل الأمازيغية وقبائل أولاد خاوة في وسط الهرم، بحكم امتلاكها لجزء من الأراضي، ويبقى الشرفاء في قمة الهرم، باعتبارهم أصحاب الأرض، ويملكون وسائل الإنتاج، فضلا عن نسبهم الشريف. ولعل هذا العنصر الأخير ما مكنهم من الحصول على امتيازات كبيرة من قبل العلويين أصحاب الحكم، وذلك عن طريق تمكينهم من ظهائر التوقير والاحترام التي زادتهم نفوذا وحظوة في المجال القصباوي نفسه.

وبناء عليه، حصل أبناء الشريف مولاي السعيد بدون استثناء على ظهائر سلطانية، كانت تتجدد بعد موت أصحابها، فتنتقل إلى الإخوة أو الأبناء. وظل هؤلاء يتوصلون بهذه الظهائر بصفة منتظمة، منذ حكم السلطان مولاي إسماعيل وإلى غاية دخول المغرب مرحلة الاستعمار. ونورد على سبيل المثال أحد هذه الظهائر التي سلمت من السلطان مولاي إسماعيل إلى الشريف مولاي عبد الرحمان بن السعيد الذي أنزله منزلة أخيه مولاي هاشم بن السعيد: «**يعلم بحول الله وقوته من هذا المسطور الكريم، والأمر المطاع الجسيم، يقر بيد ابن عمنا مولاي عبد الرحمن بن السعيد، يتعرف من يقف عليه، أنا جعلناه في رتبة أخيه مولاي هاشم بن السعيد رحمه الله، وأنزلناه منزلته، وأقمناه مقامه، وأحللناه محله في كل شيء...** » [24]، وهو الظهير الذي يؤكد ما كان يتمتع به مولاي هاشم وإخوانه الشرفاء بالقصابي من مكانة وحظوة متميزتين.

لا غرابة إذن، أن يحصل الشرفاء من خلال هذه الظهائر السلطانية على بعض امتيازات تجسدت في الإعفاءات الضريبية، والإعفاء من القيام ببعض الواجبات التي لزم على ساكنة المنطقة القيام بها، وعبرها يعتبرهم السلطان ممثليه الروحيين في المجتمع، مقابل الولاء والبيعة والتبعية المطلقة، فكما كان يغدق عليهم بمختلف الهبات[25]. وفي هذا السياق، كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد أنعم على أبناء عمومته أفراد أسرة أولاد مولاي علي بمنجم الغاسول[26]، وهو الحدث الذي شكل العلامة الفارقة التي جعلت هاته الأخيرة تتصدر المشهدين الاجتماعي والسياسي في المنطقة، إذ قدمت عددا من أبنائها للسهر على تسيير الشأن العام لمنطقة القصابي

ملوية، بعدما كان يتم توليتهم من قبل السلاطين كلما تم التفكير في أحد من أبناء المنطقة. ففي أواخر القرن 18م ولى السلطان مولاي سليمان الشريف مولاي علي بن محمد قائدا على المنطقة[27]، وجدد كل من مولاي عبد الرحمن بن هشام وسيدي محمد بن عبد الرحمن للشرفاء حكم ما بأيديهم[28].

وإذا كانت العلاقات التي جمعت شرفاء القصابي ملوية بالسلاطين العلويين متميزة، وحملت في أغلب الأوقات طابع الود والاحترام، فإنها لم تخل من خلافات وسوء فهم. ذلك أنه كثيرا ما كان يقع الخلاف بين هؤلاء الشرفاء في منطقة القصابي ملوية حول امتلاك وسائل الإنتاج، وبعض مناطق النفوذ عموما، وهو ما كان يعتبر تهديدا للسلطة والاستقرار في نظر المخزن، مما كان يجبره على التدخل لإنهاء الخلاف بنبرة لا تخلو من الغضب والرغبة في التأديب. ولنا في رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام التي وجهها إلى أبناء عمومته بالقصابي المؤرخة ب 20 جمادى الأولى 1252هـ/ فاتح شتنبر 1836م خير دليل على ذلك، وكان المستهدف هذه المرة كل من ذكر في الرسالة، يخبرهم فيها بما كان يود القيام به تجاههم، قائلا: « **كافة أبناء عمنا؛ أولاد سيدي محمد بن السعيد، وأولاد مولاي عبد الرحمن بن السعيد، وأولاد محمد بن قاسم، وأولاد بن سليمان ببوسلام، وأهل تاوريرت، وخماميس برتات، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فلقد كنت عازما على تأديبكم أدبا ينزجر به غيركم، حتى قدم لحضرتنا إخوانكم وأصلحنا لهم، وراعينا فيكم النسبة الشريفة، وأعرضنا عما فعلتم صفحا، ثم إلا الألف الذي صالح به أخوكم مولاي لحسن عن جريمتكم، والتزمه لإخوانكم، فلابد اجمعوه، وكل من حضر يعطي منه ما نابه، واعزموا به، وادفعوه لأربابه، ولا يصحبكم تراخي في ذلك، وهو ذعيرتكم، ومن تراخى فلا يلومن إلا نفسه** »[29].

ولأجل ضمان الاستقرار بالمنطقة، وتفادي مثل هذه الخلافات التي كانت تنشب بين الشرفاء على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن، على سبيل المثال، بادر السلطان مولاي الحسن إلى إقامة قصبة تمثل نفوذ المخزن بالمنطقة، وتمعن في إخضاع جل القبائل المستوطنة بالمجال الممتد من القصابي إلى تافيلالت، إلا أنه لم يعمل على تولية أحد أفراد الأسر الشريفة في المنطقة، بل وضع على رأسها شخصية عبد الرحمان بن الشليح الشرادي وجهزها بقرابة 120 من العساكر[30]،درءا لكل ما يمكن أن ينتج عن ذلك من صراعات، وهو الأمر الذي لم يعتد عليه الشرفاء. ومما يفسر حرص السلطان على محاولته تجنب الخلافات التي يمكن أن تنشأ بين الشرفاء، والحفاظ على مكانتهم الاعتبارية المتميزة، تعيينه لكل من النقيبين محمد بن قاسم ومولاي أحمد بن عمر، للنظر في أمورهم، وحفظ مصالحهم[31]، الشيء الذي يبرز الاهتمام الذي أولاه السلطان لهذه الفئة، وهو ما دأب عليه السلطان مولاي عبد العزيز الذي عين مولاي علي بن الحسن نقيبا[32] على الشرفاء[33].

وخلاصة القول، يمكن أن نستشف مما سبق أهمية وحساسية الدور الذي اضطلع به الشرفاء بمنطقة القصابي ملوية، حيث كان لهم الفضل في استقرار المنطقة والتقليل من حدة الصراعات والأزمات، ومن خلال ربطهم لعلاقات متميزة مع القبائل المستوطنة للمجال، وتشكيلهم لتحالفات اجتماعية مكنت من إشاعة السلم السلام، وحماية الأفراد والممتلكات، مستغلين في ذلك علاقة القرابة الدموية والمتينة بقمة هرم المخزن المركزي، الأمر الذي ساعدهم على تقوية نفوذهم داخل المجال القصباوي.

الهوامش:

[1] – أحمد عبد اللوي، علوي، **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج.1، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1416هـ/ 1996م، صص. 354-355.

[2] – مدينة ميدلت حاليا.

[3] –الشرفاء المعنيين بالاتفاق: المستقرين بتزناقت (مدغرة) (704 فرد) والقصر البراني (199) والغروس (40 فرد) وأزمور (497 فرد) وتاركة (399 فرد) وأهل زيز والقصابي (1394 فرد) وبوسلام (414 فرد) وعياط (324 فرد) وأهل كير وتولال (1098 فرد).

[4]- Charles, Pellat, **«Un document sur les rapports entre chorfa et berbères»**, in **revue de l'occident musulman et de la méditerranée**, N° 15-16, 1973, Mélanges le tourneau.II, pp. 253-256.

[5]- Charles, Pellet, **«Un document sur les rapports entre chorfa et berbères»,** Op.cit.

[6] –نسخة ظهير شريف صادر من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى الشريف مولاي الحسن بن علي "**قبول طلب قبائل أيت ازدك الالتزام والطاعة**"، 17 ربيع الثاني 1265هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه، مكناس.

[7] –نسخة ظهير شريف صادر من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى الشريف سيدي محمد بن الحسن بن علي القصباوي، "**جواب على إبلاغ السلطان بإنصاف الشرفاء من أهل برتات من قبل القائد علي الزدكي**"، 15 ذو القعدة 1278هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[8] –نسخة رسالة سلطانية صادرة من السلطان مولاي الحسن بن محمد إلى قواد أيت ازدك، " **جواب على الإخبار بوصول قواد أيت ازدك إلى القصابي مع العسكر السعيد لإصلاح القصبة المخزنية**" 27 شوال 1310هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[9] – رسالة صادرة من القائد يدير وعلي الزدكي ومحمد والحسن الوفلاوي وعمر بن محمد اليوسي إلى الوزير الأعظم سيدي أحمد بن سيدي موسى، "**طلب الاعتناء بالقصبة المخزنية بالقصابي**"، 29 رجب 1321هـ، رقم 26696، م.و.م، الرباط.

[10] – روجي، لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1416هـ/ 1996م، صص. 284- 287.

[11] – نفس المرجع، م.س، ص. 287.

[12] – نفسه، ص. 284.

[13] – رسالة من الشريف مولاي هاشم إلى الشريفين مولاي أحمد بن علي ومولاي أحمد السيد، "**تواجد الشريف مولاي هاشم في الحضرة الإدريسية (فاس) بقصد شراء بعض مستلزمات السبة (مناسبة حفل)**"، محرم الفاتح 1324هـ، خزانة مولاي السعيد هاشمي، مكناس.

[14] – نفس المرجع.

[15] – مولاي إدريس، الفضيلي، **الدرر البهية والجواهر النبوية**، مراجعة ومقابلة أحمد بن المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج.1، مطبعة فضالة، 1999، المحمدية، المغرب، ص. 288.

[16] – رسالة من الشريف سيدي محمد الودغيري إلى أفراد من شرفاء القصابي، "**جواب يتضمن شراء ما طلبه شرفاء القصابي والتساؤل حول خصائص الملابس التقليدية المطلوبة**" 19 رجب الفرد 1322هـ، خزانة مولاي السعيد هاشمي.

[17] – فس المرجع.

[18] – رسالة من الشريف سيدي محمد الودغيري إلى الشرفاء مولاي أحمد بن علي ومولاي أحمد السيد ووالدتهما للا الصفية ومولاي هاشم، "**جواب على طلب شراء ما يحتاجه الشرفاء بمناسبة عقيقة مولود**"، دون تاريخ، خزانة مولاي السعيد هاشمي.

[19] – رسالة من الشريف سيدي محمد الودغيري إلى أفراد من شرفاء القصابي، " **جواب يتضمن شراء ما طلبه شرفاء القصابي والتساؤل حول خصائص الملابس التقليدية المطلوبة**"، 19 رجب الفرد 1322هـ. م.س.

[20] – رسالة من الشريف سيدي محمد الودغيري إلى الشرفاء مولاي أحمد بن علي ومولاي أحمد السيد ووالدتهما للا الصفية ومولاي هاشم، "**جواب على طلب شراء ما يحتاجه الشرفاء بمناسبة عقيقة مولود**"، دون تاريخ، م.س.

[21] – مجموعة وثائق محاسبة موجهة من التاجر الفاسي سيدي محمد الودغيري إلى بعض شرفاء القصابي، خزانة مولاي السعيد هاشمي.

[22]- A.D.N, F.P.M/R.G, D.I, cote. 1MA/285/9, région de Fès, territoire de Taza, cercle de Guercif, Dossier. N° 169 B.M/C, Les chorfa de la moulouya, Tribu des chorfa de Ksabi, 8 aout 1947, p.12.

[23] – مولاي إدريس، الفضيلي، م.س، صص286-288.

[24] – نسخة ظهير شريف صادر من السلطان مولاي إسماعيل إلى الشريف مولاي عبد الرحمان بن السعيد، "**التوقير والاحترام**"، 14 جمادى الثانية 1098هـ. خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[25] – عبد الله، العروي، **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830–1912**، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور، ط.1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2016، صص. 128–129.

[26] – نسخة ظهير شريف صادر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الشرفاء أولاد مولاي علي بن الحسن، "**الإنعام على الشرفاء بمعدن الغاسول بجبل الغواسل**"، 13 جمادى الأولى 1200هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[27] – نسخة ظهير شريف صادر من السلطان مولاي سليمان بن محمد إلى الشريف مولاي علي بن محمد، "**تولية مولاي علي بن محمد على القصابي**"، في 16 جمادى الأولى 1207هـ/ 1792م، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[28] – نسخة ظهير شريف صادر من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى الشرفاء أولاد مولاي هاشم وأولاد مولاي لحسن، "**التوقير والاحترام**"، 3 رجب 1253هـ/ 1837م، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

– نسخة ظهير شريف صادر من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى أولاد مولاي هاشم وأولاد مولاي لحسن، "**التوقير والاحترام**"، 16 رجب 1276هـ/ 1860م، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[29] – رسالة سلطانية صادرة عن السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى البعض من أبناء عمومته بالقصابي، "**التهديد بالتأديب**"، 20 جمادى الأولى 1252هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[30] -A.D.N, F.P.M/R.G, D.I, cote. 1MA/285/9, région de Fès, territoire de Taza, cercle de Guercif, Dossier.N° 169 B.M/C, Les chorfa de la moulouya, Tribu des chorfa de Ksabi, op.cit, p.10.

[31] – نسخة كتاب وزيري صادر عن الفقيه السيد المسفوي إلى الشريفين السيد محمد بن قاسم ومولاي أحمد بن عمر القصباويين العلويين، "**جواب على الإخبار بقضية القائد محمد الطالب**"، 8 صفر 1308هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[32] – نقيب الشرفاء هو المكلف بالحفاظ على نسب هذه الفئة، والمسؤول عنها وممثلهم أمام المخزن، وقد بادر المخزن العلوي إلى تنظيم مسألة الشرف في ظل تنامي ظاهرة منتحلي هذه الصفة، لما كانت تتمتع به من امتيازات، وقد سبق أن تكلف بهذه المهمة كل من السيد محمد بن قاسم والسيد أحمد بن عمر. نسخة كتاب وزيري صادر عن الفقيه السيد علي المسفوي إلى الشريفين السيد محمد بن قاسم ومولاي أحمد بن عمر القصباويين العلويين، "**جواب على الإخبار بقضية القائد محمد الطالب**"، 8 صفر 1308هـ، خزانة مولاي أحمد بلفقيه.

[33] – نسخة ظهير شريف صادر عن السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن بن محمد إلى ابن عمه الشريف مولاي علي بن الحسن العلوي القصباوي، "**تعيين الشريف مولاي علي بن الحسن العلوي القصباوي نقيبا على الشرفاء أيت مولاي هاشم وعلى ربع إخوانه أيت مولاي علي وعلى الشرفاء أهل تاغزوت وشرفاء أهل القصر الجديد**"، صفر عام 1313هـ، خزانة مولاي السعيد هاشمي.